

الحديث ذو شجون للدكتور زكي مبارك

درس في الأخلاق — الكتاب الأسود — زكي مبارك
كما يراه عباس العقاد — الطبيعة المصرية — الترجمة عمر
مطلوب ومفيد ، ولكنها لا تدل على الأصالة الذاتية

درس في الأخلاق

صديق ...

أوجه إليك هذه الكلمة ، وأنا أرجو أن يقرأها فيما بينك
وبين نفسك ، بلا تفكير في التعقيب ، لأنني لن أستمع لك
إن قابلتها بأي اعتراض ، فإتسع وقتي للمجادلة في أمور صارت
عندي من البديهيات

وأسارع فأقرر أني لا أقيم وزناً للتشكي من الزمان ، على
نحو ما يصنع بعض الشعراء ، وعلى نحو ما كنا نصنع يوم كنا
نتوهم أن الحظوظ تقسم بلا ميزان
أنا اليوم أؤمن بأن الله قانوناً اسمه النظام ، وهو يطرّد
في جميع الشؤون ، فالشمس بنظام ، والقمر بنظام ، وجميع
الخلايق بنظام يفسده أقل اختلال

المناسبة المارضة أو على حسب قانون العرض والطلب الذي
يتحدث به الاقتصاديون . وبمطلب الهوان على الفتاة في المترك
الحاضر لأنها هي التي كانت مطلوبة فأصبحت معروضة أو طالبة
فصاحبها الرخص والهوان من طريق الحرية ، وهو ما عتبناه
بالمثالة في طريق مشيئتها بعد الذلة التي أصابتها قديماً من فقد
الشيئة . فإذا وقع الفتي في قيد الزواج فإنه يشكو من زواجه
أضعاف ما كان يشكوه أبوه وجده ، ويحار فيه الحيرة التي
لا يخرج منها إلا بالفرار أو الاصطبار

هي بلوى الحرية المفاجئة بعد بلوى العدوى الاجتماعية ،
وهي حالة جديدة تحتاج إلى « قاسم أمين » جديد يعالجها ويرفع
العقيرة بالثورة عليها ، ولا يكون في عمله إلا قلم صفيحة من
الكتاب الخالد الذي فتح صفحته السابقة قاسم أمين قبل خمسين
سنة . رحمه الله .

عباس محمود العقاد

لا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا وفقاً لقوانين أزلية
لا يجوز عليها الانحراف

السيد سيد بحق ، والمبدع عبد بحق ... ولو حمل المير
روح الأسد لصاولة في حومة الصراع بلا تهيب ولا إشفاق
نحن المسئولون عن تخلفنا حين نتخلف ، لأن في مقدورنا
أن نصل إلى أعظم مكانة إن تحمينا بالصدق في الجهاد ، ولأن
في استطاعتنا أن نكون عظماء يشغلون التاريخ ، إن ناضلنا
في سبيل المجد نضالاً يقرع سمع التاريخ

وهذا لا يتيسر إلا إن راعينا نظام الوجود
ذلك السائل لا يستحق غير ذل السؤال ، لأنه يخدم قواه
عن عمد ليظفر بالصدقات المجاف
وذلك البليد الذي رضى أن يكون طول عمره من الذبول
سيظل ذليلاً لأنه بليد ... وذلك التابع السخيف لتبوعين سخفاء
لن يصلح لشيء ، لأنه يستظل بأموات يعيشون في ظلال
الأموات ... وذلك الذي يتهمس بفضل حماية غيره لن يرتفع
بأي حال ، وإن استعان بطنين الذباب

لك ما تريد لنفسك ، على شرط أن تفهم تلك القوانين
الأزلية فتجاهد في حدود الصدق جهاد الرجال
لك ما تريد لنفسك ، على شرط أن تترك الأوهام التي تزعم
أن الرجل لا ينجح إلا إن صادفته فرصة تنقله من حال إلى أحوال
الفرصة في يدك إن أردت ، ولكن متى تريد ؟

أنت لغفلتك تتوهم أن الذين سبقوك إلى المال أو الجاه لم
يسبقوك إلا بفضل الفرص التي سبقت على غير ميعاد
الفرصة في يدك ، وميعادها بيدك ، على شرط أن تكون
رجلاً لا يجوز عنه الاستغناء

زود نفسك بالزبا التي ترفعك ، وافض ليلك ونهارك
في كسب الخصائص التي تملكك من أهل التفوق ، وإن استطعت
أن تكون الرجل الأول في المذهب الذي اخترته لنفسك قلن
تشكو الفبن ولو قامت في طريقك ألوف وألوف من الأشواك
الرجل الذي يستطيع أعداؤه وحاسدوه أن يهدموه ليس
بالرجل العظيم ، وإنما هو وليد ظروف ومصادفات جعلته شعباً
يوهم من يراه أنه شخص من الأشخاص ، وما أريد لك هذا
الحظ الضئيل

ماهذه المغالاة في تعقب الشؤون الداخلية ، مع ترك الشؤون الخارجية ؟

الجواب حاضر : فسماعة الأستاذ مكرم باشا يتوهم أن مسألة الأمور الدولية قد تنفع بعد حين ، وقد تردّه إلى وزارة المالية بعد أحيان !

نحن نبالغ في إيذاء المواطنين باسم الوطنية ، ونسكت عن الشؤون الخارجية باسم الدبلوماسية ، وذلك هو ما صنع الأستاذ مكرم عبيد !

هل أستطيع أن أسأل عن المصير الأخلاقى لمن يجرح قومًا عاشرهم في أعوام تزيد على العشرين ؟

وهل أستطيع سؤال مكرم عن سر سكوته فيما يختص بمتاعب مصر من الوجهة الدولية ؟

من واجب مكرم باشا أن يقرأ هذه الكلمة ليراعيها في كتابه المقبل . وهذا درس فى الوطنية أقدمه إليه بالحنان

زكى مبارك كما يراه عباس العقاد

تفضل الكاتب الكبير الأستاذ عباس العقاد نخسنى بكلمة نقدية فى مجلة الإثنين ، وهى كلمة تؤيد رأيى فى مذهبه الأدبى ... ألم أحدثكم أن منطق العقاد يستقيم فى جميع الشؤون إلا فيما يتصل بزملائه من الأدباء المصريين ؟

إن لى فى أدب الأستاذ العقاد آراء صحيحة لم تتأثر بتجاهل المعاصرين بعضهم على بعض ، وقد أثبتت على أدبه فى ظروف لا تسمح بأن ينتظر منى أى ثناء ، فقد تخاسمنا وتعادينا فى آراء وآراء ، ثم كانت العاقبة أن أعترف بمجهاده فى الحياة الأدبية ، وأن أذكره بالجميل حين يستأهل الجليل

قال الأستاذ عباس العقاد : « إن الدكتور زكى مبارك أقل الكتاب شخصية فى حياته الكتابية وإن أسلوبه الكتابى معروض لتوقيع من يشاء »

فبأى منطق وبأى حق يقول الأستاذ العقاد هذا الكلام الغريب ؟

هل يستطيع أن يدلنا على كاتب يضع اسمه على كتاب « النثر الفنى » أو كتاب « التصوف الإسلامى » أو كتاب « عبقرية الشريف الرضى » أو كتاب « ذكريات باريس »

أريد أن تكون كذلك المسكين الذى يعرف فى قرارة نفسه أنه لا يستطيع الوقوف على قدميه بلا سند ؟

ما لهذه الغاية الضئيلة خلقنا ، وما لهذا النصيب الهزيل من الله علينا بنعمة السمع والبصر والفؤاد

الكسل آفة سخيقة ، وهو يمت مواهبنا الذاتية ، ويغضى بنا إلى مهاوى الخمود

الكسل مذموم العواقب ، وهو من صور الموت ، لأنه أول خصائص الأموات

وأنت يا صديق كسلان ، بغض النظر عن نشاطك فى لحظات التشكى من زمانك ، وهو نشاط الريض فى لحظات الصراخ

غير ما بنفسك يا صديق ليغير الله ما بك ، واحذر أن تأكل رغيفاً بغير حق ، كأن تأخذ أجراً على عمل لا تؤديه أحسن الأداء

الكتاب الأسود

تسامع الناس قبل أسابيع بأن سماعة الأستاذ مكرم باشا عبيد نشر كتاباً سماه الكتاب الأسود ، وقال من قرأوه إنه غاية فى قوة الحجج والبراهين ، فدفنى الشوق إلى الاطلاع عليه ، وأنا بلا مبالاة أقرأ جميع ما تنشر المطابع فيما يتصل بالحياة الأدبية والوطنية لأسابر اتجاه الأفكار فى زمانى فاذا رأيت فى الكتاب الأسود ؟

رأيت مؤلفه اهتم بالشؤون الداخلية ، وترك الشؤون الخارجية ، فما معنى ذلك ؟

أ تكون وزارة النحاس باشا سلمت كل السلامة من التقصير فى الشؤون الخارجية ونحن فى زمن تكثرت فيه المشكلات الدولية ؟ إن كان هذا هو الواقع بفضل سكوت مكرم باشا فوزارة النحاس باشا أعظم وزارة تغلبت على المصاعب الدولية فى أخرج لحظات التاريخ

وإن كانت هناك مأخذ على الوزارة الوفدية من الوجهة الدولية فسكوت مكرم باشا على تلك المأخذ سكوت المريب التمرض للشؤون الداخلية بغضب النحاس وحده . أما التمرض للشؤون الخارجية فيغضب ناساً براعيهم مكرم فى السر قبل العلانية

أو كتاب « اللغة والدين والتقاليد » إلى آخر ما أخرجت من المؤلفات ؟

ثم يقول الأستاذ العقاد ما نصه بالحرف :

« الدكتور زكي مبارك حضر الأزهر والجامعة المصرية وجامعة في باريس ، ولكنه لا يمثل الأزهر ولا الجامعة المصرية ولا جامعة باريس »

وهذا كلام يسرفني ، وإن أراد به العقاد إيذائي ، فأنا أبغض الاستعباد للمعاهد والمذاهب ، وأعتقد أن أدبي سيعيش بعد أن تصبح تلك الجامعات خيراً لا تميمه ذاكرة التاريخ زكي مبارك هو زكي مبارك كما قال العقاد ، وهي أصدق كلمة قالها العقاد ، على كثرة ما صدق في أحكامه الجوائر على أدباء هذا الجيل

قد يقول الأستاذ عباس العقاد كما قال الدكتور طه حسين : إن شخصية زكي مبارك المؤلف قوية كل القوة ، وإنما الخلاف في شخصية زكي مبارك الكاتب

وأقول إن هذا ظلم من الدكتور طه والأستاذ العقاد ، وأنا أتحدى هذين الرجلين بكتاب « ليلى المربضة في العراق » فهو آية من آيات البيان

وما رأى الأستاذ العقاد في المقالات التي أنشرها بمجلة الرسالة من أسبوع إلى أسبوع ؟ أليظنها مقالات معروضة لتوقيع من يشاء ، كما يقول ؟

مجموعات الرسالة تشهد بما أملك من قوة الذاتية ، وهي أيضاً تشهد بأن أسلوبى أقوى من أسلوبه وأبلغ ، وبأنى أخلق في آفاق لا يصل إليها ولو استمسك بأوهام الخيال . والعقاد يعرف في قرارة نفسه أنه لا يقدر على مجاراتى في أى ميدان

وما رأى الأستاذ العقاد في القصائد التي نشرتها بمجلة الرسالة ؟ هل يستطيع أن ينظم مثلها في أى غرض ؟

أنا أتحدى أن ينظم قصيدة مثل قصيدة « مصر الجديدة » أو قصيدة « الإسكندرية » أو قصيدة « بغداد »

العقاد شاعر كبير ، ولكنه لا يستطيع أن يكون أشعر منى ، وله أن يحاول مصاولتى في ميدان الشعر إن أراد

قال الأستاذ العقاد : « زكي مبارك الكاتب لا يستغنى عن زكي مبارك بحال من الأحوال ، إذا استغنى المؤلفون عن أنفسهم في بعض الأحيان »

وهذا حق وصدق ، وهو الدليل على ما أملك من قوة الذاتية ؛ وإذا استغنى العقاد عن نفسه فأنا لا أستغنى عن نفسى ، لأنها أتمنى ما أملك

أما بعد فما الذى دعا الأستاذ العقاد لناوشتى بمثل ذلك التحامل الذى لا يليق بمن يكون فى مثل منزلته الأدبية ؟ وما عدوانه على كاتب ذكره بالخير فى أكثر ما أنشأ من المقالات والمؤلفات ؟

رأى فى العقاد لن يتغير بأى حال ، فهو كاتب وشاعر وناقد ومؤلف ، وسأزكيه عند قرأتى بلا بخل وبلا إسراف ، ولكنى أرجوه أن يتذكر أن له صديقاً يكره أن يكون من المطففين

إن كان الأستاذ العقاد رأى بفكره الثاقب أنى سأنتظف فى الرد عليه فقد صدق فيما رأى ، فما أستبجح المهجوم على رجل يجعل القلم منذ أعوام تجاوز الثلاثين ، وقد تشارف الأربعين ، أطل الله فى حياته وأسبغ عليه نعمة الصفاء

الطبيعة المصرية

وأراد الأستاذ العقاد أن يحكم بأن الدكتور هيكل كاتب لا يثب إلى الآفاق العالية ولا ينقض إلى الأغوار العميقة ، فجعل ذلك وفاء للطبيعة المصرية ، طبيعة الأرض التى يروىها النيل بغير عناء كما يقول

وأقول إن الطبيعة المصرية لا تعرف السهولة التى عنها الأستاذ العقاد ، وليس بصحيح أن أرض مصر يروىها النيل بغير عناء ، فهو لا يؤدى واجبه فى رى الأرض إلا بالجملة من القناطر والجسور ، ولا ينكف شره إلا بمتاعب ثقال

والحق أننا أسرفنا فى وصف الأرض المصرية بالاستواء ، وكدنا نوم أنفسنا بأن بلادنا قليلة التنوع فى المناظر ، وقليلة القدرة على إبداع النقائض فى المذاهب والآراء

والعقاد مصرى من أسوان ، فما الاستواء الذى يراه فى الطريق بين القاهرة وأسوان ؟ ومتى سهل رى الأرض فى مصر وهو المشقة الأولى فى حياة الفلاحين ؟

والعقاد لا يبخل على نفسه بما يبخل به على هيكل ، فهو فى نظر نفسه من الذين يثبون إلى الآفاق العالية وينقضون إلى الأغوار العميقة ، فعن أى أرض ورت الثوب والانتقاض ؟